الرفض العربي ... والخضوع العنصري

بقلم اسماعيل المهدوي

مكسيم رودنسون كاتب يهودي ، قيل فيما يقال انه اختار الماركسية بدلا من اليهودية ، واختار الاشتراكية بدلا من الصهيونية . وقيل ايضا انه صديق للعرب معارض للسياسة الاسرائيلية . ويبدو انه كان يكثر التلويح بالرايات الملونة حتى اجتذب حماس الكثيرين من العرب . وبلغ ذلك الحماس الى درجة توجيه الدعوات اليه لزيارة مصر . وحتى بعد ان اعتذر عن ذلك،تساقطت عليه الرسائل من بعض الصحفيين المصريين يناشدونه ان يكتب الى صحفهم . والشيء الذي لم يدركه بعد هؤلاء المتمركسون المعجبون به ، انه انتقل اليوم الى اسلوب الانحياز الى اسرائيل . ويكفي هؤلاء ، ان يقرأوا بدقة صفحات كتابه الاخير « اسرائيل والرفض العربي ».

وقد حملت الكتاب الى مكسيم رودنسون في منزله اناقشه في بعض افكاره ، فلم اجد فيما سمعت منه التواء ولا غموضا . وحتى عندما قلت له اني سأنشر كلماته في مجلة « الآداب » ، لم يملك الا ان يهز كتفيه تعليقا على ذلك !

الصهيونية والقومية :

يبدأ رودنسون كتابه بفصل عنوانه : « القومية اليهودية والقومية العربية » . والمؤلف ـ رغم انه استاذ في مدرسة الدراسات العليا ـ لا يشعر على الاطلاق بأن عبارة « القومية اليهودية » تمثل في حد ذاتها مشكلة تحتاج الى بحث وتبرير . لكنه يسوق هذا الشعار كما لو كان بديهية لا تقبل الخلاف ، مع انه ظل على الدوام مثيرا للخلاف حتى لدى يهود التنظيمات السرية في روسيا القيصرية قبل ان يتحول الى شعار لتبرير الغزو الاستعماري . (والحقيقة ان هذه عادة رودنسون في معظم كتبه ، حيث يسقط افكاره اسقاطا دون ان يحمل نفسه مشقة اثباتها او الاشارة الى وثائقها) . والا فما هي عناصر القومية ـ كما يفهمها المؤلف الذي قال في العام الماضي في مجلة « الازمنة الحديثة » في مقال بعنوان « اسرائيل واقع استعماري » ، ان نظرة واحدة الى وجوه عرب فلسطين تثبت تجانسهم الجماعي بينما يتضح على وجوه الاسرائيليين انتماؤهم الى اصول شتى؟!

ومهما يكن ، فقد انطلق المؤلف من هذه البديهية المزعومة يستعرض تاريخ « الامة » اليهودية ، فتحدث عما يسميه « الدولة اليهودية » في اليمن في القرن الخامس الميلادي . لكن الحقيقة التاريخية ، ان حاكم اليمن القديم في تلك الفترة المؤقتة ـ واسمه ذو نواس ـ لم يعتنق اليهودية الا تعبيرا عن التمرد على السيطرة الاجنبية المتمثلة في الديانة المسيحية التي كانت تفرضها دولة الحبشة او دولة الروم ، بعكس اليهودية التي كانت اذ ذاك دينا بلا وطن ولا دولة . فالاقرب الى الصواب اذن ان يقال ان حكام اليمن اقاموا دولة عربية مستقلة ، لا دولة يهودية تدخل في تاريخ الصهيونية العالمية . ولهذا انكمشت اليهودية في الجزيرة العربية بمجرد سقوط تلك الدولة وقبل ظهور الاسلام .

وتذكرنا هذه الملاحظة بقصة اخرى اخترعها مكسيم رودنسون ايضا في كتاب اخر عنوانه « محمد » ـ وهو كتاب يمتلىء بمحاولات يائسة لافتعال ادوار كبيرة لليهود على مسرح الحياة الجاهلية اثناء ظهور الاسلام . فقد حاول مثلا ان يلصق صفة اليهودية بالحنفاء الاربعة الذين عاشوا قبيل الرسالة المحمدية ، فاخترع لهم اسما جديدا هو « اليهود المسيحيون » judéo - chrétiens . وحاول ان يوهم القارىء بأن ورقة بن نوفل بالذات كان اقرب الى اليهودية . هذا مع ان المستشرقين غير المسلمين يرون انهم كانوا مؤلهين ذوي اتجاه مسيحي ، او شبه مسيحي من انصار ماني الفارسي ، باعتبار ان كلمة « حنيف » مشتقة من الكلمة السريانية « حنفوتا » التي كان يطلقها المسيحيون السريانيون على اتباع ماني .

ولنرجع الى كتابه عن اسرائيل .

يصل المؤلف في استعراض « القومية » اليهودية الى مناقشة موقف هرزل من قضية دريفوس ، فيقول ان مؤسس الصهيونية اتفق مع اعداء السامية في اعترافه بأن اليهود عناصر اجنبية عن اوروبا . حسنا اذن ! ان القارىء قد يتوقع من « صديق العرب » كلمة واحدة ضد الصهيونية او ضد « القومية » التي دعا اليها هرزل . لكن ، لا . فالمؤلف لا يدين هرزل ، بل يبرر اختياره لفلسطين بأنها كانت « الوطن القديم » لليهود .

لماذا ثارت المشاكل اذن عند احتلال فلسطين ؟

لسبب بسيط جدا ... مجرد مصادفة عمياء من المصادفات التي يحفل بها التاريخ . يقول رودنسون (ص ١٤) :

« كان هذا هو الاتجاه العام للعالم الاوروبي في العصر الذي يتحمل مسئولية ذلك . فكل قطعة ارض تقع خارج هذا العالم (اوروبا) كانت تعتبر فارغة افتراضا ... والواقع انه في كثير من مناطق الارض ، استطاعت الامم الاوروبية ان تفرض ارادتها دون مشاكل كثيرة .

لكن من سوء حظ هذا الشكل من القومية اليهودية ، الذي هو الصهيونية ، انه عندما قرر الاتجاه نحو المطالبة بدولة يهودية في فلسطين ، كان السكان المحليون لذلك البلد قد بدأوا يتأثرون بحركة عقائدية مماثلة هي القومية العربية » .

هكذا يرى رودنسون ـ بموضوعية المستشرق والاستاذ الجامعي ـ انه قبل ظهور حركة القومية العربية في القرن العشرين ، لم يكن عرب فلسطين يختلفون عن رجال القبائل الهمجية في استراليا مثلا عندما استوطنها الاوروبيون !

ثم يقول ايضا (ص ٢٠٩) :

« لكن الصهيونيين خانهم الحظ ... فالصهيونية بدأت تسجل نفسها في سجل الواقع في عصر القوميات الذي كانت هي نفسها احد مظاهره » .

ويبقى ان نشير هنا الى نقطة صغيرة ذات اهمية .

المؤلف نفسه يقول في الفقرتين المذكورتين ان فكرة القومية اليهودية تعني الفكرة الصهيونية . الا يكون معنى ذلك اذن انه حين يعترف بالقومية اليهودية ويبررها تاريخيا ، يعلن بهذا اعتناقه للصهيونية ؟

لنستعرض بقية افكاره لنعرف الجواب .

« الهزيمة العادلة » !

يتحدث رودنسون عن معارك عام ١٩٤٨ ، فيرى ان مسئوليتها تقع على العرب لانهم رفضوا قرار التقسيم الذي اصدرته هيئة الامم وبدأوا الحرب . اما الجماعات الصهيونية « المتطرفة » مثل الارجون ، فقد انساقت الى « الانتقام » نتيجة الهجمات العربية . واذا كان الجيش الاسرائيلي قد استولى على يافا مثلا رغم ان قرار هيئة الامم جعلها ضمن القسم العربي ، فالسبب في ذلك ان يافا كانت تمثل المسدس المصوب الى تل ابيب . اما الاستيلاء على بعض مناطق القدس ، فانما يبرره ان قرار هيئة الامم نص على تدويلها . وعندما يتحدث المؤلف عن سفاحي الارجون ، يكتفي بأن يصفهم بأنهم « قوميون متطرفون » ، ويرفض ان يسميهم بالارهابيين ، رغم انه سمح لنفسه ان يطلق هذا الاسم على مناضلي منظمة « فتح » (ص ١٦١) !

وينتقل المؤلف الى الحديث عن دور بن غوريون في اقامة دولة اسرائيل ، وكيف اراد ان يحتل سيناء عام ١٩٤٨ لولا ان منعه من ذلك « انذار » بريطاني اميركي . ثم يذكر للعرب درس الهزيمة الاولى قائلا ان العالم كله اعتبرها « هزيمة عادلة » ، وان العالم كله حاول ان يلقن العرب « اخلاقيات » هذه الهزيمة، التي تتلخص في ان العرب لا يملكون حقا قانونيا في فلسطين بحكم قرار التقسيم ، ولا يملكون حقا واقعيا بحكم نتيجة الحرب (ص ٥٢) . لكن رودنسون ـ صاحب الراية المتمركسة ـ نسي ان الحقوق الشرعية للشعوب لا تتحدد بالقرارات الدولية ولا بالهزائم المؤقتة . ولو كان رودنسون اشتراكيا حقا، لتذكر مثلا ان حق الشعوب في الاشتراكية ظل مجرد حلم نظري طوال عشرات السنين ، ترفضه القوانين واللوائح وتقهره القوى الفاشية . ومع ذلك استطاع هذا الحق أن يفرض وجوده وأن يتحول هو نفسه الى قوة فعالة في عالم اليوم .

ثم لماذا لم يتحدث المؤلف عن دور الاوساط الاميركية في تحقيق هذه الهزيمة العادلة ؟

لانه يزعم ان اتجاه اسرائيل الى « التعاون » مع العالم الغربي لم يبدأ الا عام ١٩٥٠ ونتيجة الاجراءات المتشددة التي اتخذها ستالين عام ١٩٤٩ ضد الصهاينة في البلاد الاشتراكية .

والحقيقة انه يهتم اهتماما كبيرا متكررا بالهجوم على فكرة ارتباط اسرائيل بالمخططات الاستعمارية ، على عكس ما كان يرى في مقاله في « الازمنة الحديثة » في العام الماضي . وحتى الهجوم الاسرائيلي على غزة في ٢٨ فبراير ١٩٥٤ غداة توقيع حلف بغداد ، يخترع له اسبابا اخرى غير السبب المعروف تاريخيا ، وهو الضغط على مصر لموقفها من الحلف . وهو يلخص رأيه في وضوح بأن علاقة اسرائيل بالغرب (والمؤلف يتعمد ان يستخدم في كتابه كلمة « الغرب » بدلا من كلمة « الاستعمار » !) ليست سوى « اختيار سياسي » نتيجة الحصار والرفض العربي ، وانها ليست علاقة اقتصادية (ص ٢٢٣) . ولهذا يهاجم اليساريين الستالينيين العرب الذين يربطون بين اسرائيل والاستعمار الاميركي ، ويقول ان تصورهم « مبتذل » vulgaire ، وقائم على تقسيمات شكلية متطرفة ultra - schématique وان اسرائيل ليست ضد الثورة العربية بل يمكن ان تتفق معها بمجرد ان يتوقف تهديد الحصار العربي حولها (ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥) .

وقد ناقشت المؤلف في هذه النقطة تفصيلا . وقلت له ان المسألة ليست اختراعا لليساريين او غير اليساريين في الوطن العربي ، وانها تستحق على الاقل مناقشة علمية للدور الذي لعبه ويلعبه رأس المال العالمي وخصوصا الاميركي في اقامة اسرائيل ثم في تكوين اقتصادياتها . وقدمت الى مكسيم رودنسون كتابا صدر اخيرا باللغة الفرنسية اسمه « من السويس الى العقبة » ، ومؤلفه كاتب فرنسي مسئول هو بيير ديستريا . ويشرح هذا الكتاب بالارقام قصة الشركة الاحتكارية الاميركية « ب. ا. س. » التي تكونت بواسطة عدة مصرفيين اميركيين يهود منهم كوهن لوش واخوان ليمان ، ثم اشترك فيها صمويل زموري مدير شركة الفواكه المتحدة التي تسيطر على أميركا اللاتينية . وقد بلغت الارباح الصافية لهذه الشركة خلال ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ ثلاثة ملايين دولار . وهي التي تسيطر الان بشكل او بآخر على معظم اراضي اسرائيل . اما مجموع رؤوس الاموال الاميركية المستثمرة سنويا في اسرائيل فيبلغ متوسطه ٢١٤ مليون دولار ،

ـ التتمة على الصفحة ٥٧ ـ

تتمة الرفض العربي

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٨ ـ

دون احتساب اموال المعونات والقروض التي تدخل مباشرة في الميزانية الاسرائيلية . ولهذا يقول ديستيريا في كتابه المذكور ان اسرائيل هي فرع من فروع شركة اميركية عالمية وليست دولة بالمعنى الحقيقي للكلمة .

لكن رودنسون لم يرد على تحليل الكاتب الفرنسي بيير ديستريا الا بجملة واحدة ، قالها في ضيق وغضب : « هذا حمق ! » C'est idiot ! ... ثم انتقل الى الهجوم الشخصي على ديستريا .

ومن المفيد ان اذكر هنا ملاحظة سريعة ، هي ان المتمركسين العرب في باريس الذين يدافعون بحماس عن رودنسون ، يهاجمون ديستريا لانه في رأيهم معارض للماركسية !

الميكرو اشتراكية في اسرائيل

على اساس انكار الارتباط الاقتصادي العضوي بين اسرائيل والرأسمالية الاستعمارية ، يتحدث مكسيم رودنسون بانطلاق عن الاشتراكية « ذات الطابع الماركسي او التولستاوي » في اسرائيل . وهو يبدأ في استحياء بالتعرض الى ما يسميه « الميكرو اشتراكية » micro - socialisme في المستعمرات الصهيونية . ويعترف اول الامر على لسان احد رجال البنوك الاسرائيلية (لكي يطمئن الرأي العام البرجوازي في اوروبا) بأن هذه المستعمرات الجماعية تمثل من الخارج عناصر في ميدان الاستثمار الرأسمالي الخاص الذي يشتري منها منتجاتها ويبيع اليها منتجاته (ص ٤٧ ـ ٤٨) . وهو لم يذكر بداهة ان المصارف والشركات والتوكيلات الخاصة في اسرائيل ليست سوى فروع لرأس المال العالمي وخصوصا الاميركي . لكنه سرعان ما انساق وراء الميكرو ماركسية التي يؤمن بها ، فاغفل رأيه الاول وانتقل الى الحديث عما اسماه «القطاع الاشتراكي» في اسرائيل (ص ٢١٣) ، كأنما هذه الميكرو اشتراكية المزعومة قد تضخمت واستطالت مع صفحات كتابه فأصبحت في الصفحات الاخيرة « اشتراكية » حقيقية . بل انه يبحث لها بالفعل عن مميزات وسمات خاصة ، فيزعم انها « اشتراكية بدون دكتاتورية وبدون مناف واعمال تطهير وقتل بالرصاص » (ص ١٤٢) .

ثم ليته كان متساهلا في رأيه عن الاشتراكية بشكل عام . لكن الشيء المثير للاهتمام انه يرفض ان يضيف صفة الاشتراكية الى اي بلد عربي ، حتى هذه البلاد التي زادت فيها التأميمات عن ٨٠ بالمئة من حجم المشروعات الخاصة . وهو يفرد في كتابه فصلا بعنوان « الاشتراكية العربية » يهاجمها كحركة سياسية ويتعمد في كل مرة يذكر اسم مصر وسوريا ان يصفهما بأنهما بلدان « لهما ميول اشتراكية » socialisants .

هكذا تتفكك العناصر الاقتصادية والاجتماعية والوطنية للمشكلة الفلسطينية . فالحركة الصهيونية حركة قومية مثلها مثل حركة القومية العربية . واسرائيل تعتمد على قطاع اشتراكي لا يقل اهمية عن «الميول الاشتراكية» في بعض البلاد العربية . واسرائيل ليست ضد الثورة العربية (اذا جاز ان يعترف المؤلف بوجود مثل هذه الثورة في الوطن العربي) . واسرائيل لا يربطها ارتباط مادي بالرأسمالية العالمية ، لكنها تلجأ الى الاستعانة باميركا دفاعا عن النفس . واسرائيل لا تريد التوسع في الاراضي العربية ، لكنها تستولي على الاراضي التي تؤمن بها اجراءاتها الدفاعية .

ماذا يبقى بعد ذلك اذن ؟

ولماذا لم يتفق العرب مع الصهاينة من اجل الثورة والاشتراكية ؟!

تبقى في رأي المؤلف نقطتان صغيرتان :

النقطة الاولى هي حديث العرب عن حق الفلسطينيين في ارض فلسطين .

والنقطة الثانية هي نشاط العناصر المتطرفة في كلا الجبهتين .

اما عن النقطة الاولى ، فالمؤلف يعترف ـ مشكورا! ـ بأن عرب فلسطين لهم بعض الحق التاريخي ، لكنه مجرد حق نظري يجب ان يتغير بتغير الظروف . يقول (ص ٢٢٢) :

« لكن لا يمكن ايضا ان نجعل منه (حقا) مطلقا . فاذا كانت المطالبة بحق ما قد تسبب الكثير من الكوارث والمظالم ، والكثير من المتاعب العملية ايضا ، فمن الممكن ان نخول لانفسنا ان نطلب التخلي عنه . ان الخطأ الذي الحقه الاسرائيليون بالعرب حقيقي تماما . لكنه ليس سوى خطأ يتكرر كثيرا في التاريخ ... وان العرب قد قاموا بفتوحات على مستوى اوسع اتساعا فريدا ، وارتكبوا الخطأ ضد كثير من الشعوب الاخرى . وان بعض العرب لا يزالون يسلكون سلوكا يستحق الادانة تماما ازاء أكراد العراق وزنوج جنوب السودان » .

ويقول ايضا (ص ٢١٥) :

« يجب ان نطلب من العرب ، حتى اذا كانوا يرون ان الصهيونيين الحقوا بهم خطأ ملحوظا بشكل كبير ، ان يفهموا اولا ان هذه المسألة هي ايضا مظهر عادي وليس مظهرا شاذا شيطانيا في العلاقات بين الجماعات البشرية ، وانهم هم انفسهم الحقوا اخطاء مماثلة بشعوب اخرى ، ولا يزالون حتى الان يفعلون ذلك في بعض المناطق ... » .

هكذا يتحول المؤرخ اليهودي الى داعية للغزو والتوسع في القرن العشرين ، ما دام الجميع كانوا يفعلون ذلك في العصور الوسطى ، وما دامت بعض المشاكل القومية الداخلية الباقية مع رواسب الماضي البعيد لا

تزال حتى الان تنتظر الحلول العادلة .

فلماذا اذن لا نعيد نظام الرقيق الذي اخذت به كل الحضارات القديمة ؟

ولماذا لا نعيد اليوم ملاعب روما مركز المدنية القديمة ، لكي يشاهد المتفرجون انقضاض الوحوش المفترسة الجائعة على ابناء نوعهم البشري ؟

ولماذا لا تستولي الولايات المتحدة الاميركية على بريطانيا التي سيطرت على اميركا في الماضي ؟

ولماذا لا يهجم الاتحاد السوفياتي مثلا ليحتل تركيا طالما ان الاتراك كانوا في الماضي يحتلون البلاد الاخرى ؟

ان رودنسون يلتقط مظالم التاريخ في القرون الغابرة ليبرر بها عدوان الغزاة في عصر الحرية الانسانية . وهو بهذه النظرة ، يفكر كمؤرخ رجعي بالمعنى الحرفي للكلمة.

ومع ذلك ، فهناك عدة ملاحظات تاريخية يجب أن تقال ردا على كلمات رودنسون التي تكررت حوالي اربع مرات في كتابه :

اولا ـ ان الفتوحات العربية الاسلامية في العصور الوسطى ، كانت اذ ذاك عملا تقدميا بالمعنى الكامل، بدليل انها استطاعت ـ على انقاض امبراطوريتين منهارتين ـ ان تقيم صرح حضارة كبيرة حملت مشعل الثقافةالبشرية قبل ان تلتقطه اوروبا .

ثانيا ـ ان العرب لم يطردوا الناس من ديارهم ، لكنهم حلوا محل الاباطرة والاكاسرة ، بوسائل اكثر عدلا واوسع سماحة .

ثالثا ـ ان عرب الجزيرة الاصليين لم يكتب لهم البقاء الا في البلاد التي استطاعت ان تحتويهم وتهضمهم داخل المجتمع المحلي ، بينما طردوا من البلاد الاخرى التي لم تستوعبهم ـ حتى هذه البلاد التي استمرت على الولاء للتراث الاسلامي . وان استمرار المشاكل القومية التي يشير اليها رودنسون فيجنوب السودان وشمال العراق، هو دليل حاسم على ان الذوبان الاجتماعي بين الشعوب المختلفة يستلزم ظروفا طبيعيةوشروطا محددة لا تستطيع القرون الطويلة ان تعوضها ، ولا يمكن ان تلغيها مؤلفات هرزل او رودنسون او قرارات الشركات الاميركية .

العناصر المتطرفة

قلنا ان المشكلة الثانية التي تعرقل « الاتفاق » بين العربواسرائيل في رأيرودنسون ، هي مشكلة المتطرفين في كلا الجبهتين . فهناك بن غوريون وموشى ديان وأنصارهما في جانب ، ورجال المنظمات المسلحة الفلسطينية في جانب آخر ، تجمعهم جميعا صفةواحدة، هي « التطرف » .

تطرف يميني أم تطرف يساري ؟

تطرف استعماري أم تطرف وطني ؟

تطرف رجعي أم تطرف تقدمي ؟

كل هذه الاسئلة لا تشغل اهتمام المؤلف ، لانه من حيث المبدأ ينكر أي اختلاف اجتماعي أو عقائدي أو سياسي بين الطرفين . فالعرب والاسرائيليون اخوة ـ لولا عناد المتطرفين !

ومن أجل تبرير أسطورة « الاخوة » الدموية التي يعمدها النابالم والاسطول السادس ، انساق رودنسون الى سرد روايات طويلة تشغل جزءا كبيرا من الكتاب ، ليثبت ان الحكام العرب بما فيهم عبد الناصر ، كانوا يشتركون دائما في مباحثات سرية (منذ وساطة ريتشارد كروسمان عام ١٩٥٤) لتحقيق الاتفاق مع اسرائيل ، لولا تدخل العناصر المتطرفة في اللحظات الاخيرة . بل انه يذكر ان أحد الحكام العرب أظهر قبولا ضمنيا لوساطة المارشال تيتو عام ١٩٦٢ في أن يلتقي شخصيا مع بن غوريون بناء على طلب الاخير . وكادت المقابلة تتم ، لولا ضغط العناصر المتطرفة .

والمؤلف ـ الذي يعمل أستاذا ومؤرخا ـ لم يحاول أن يسأل نفسه مرة واحدة :

كيف استطاعت العناصر العربية « المتطرفة » أن تفرض ارادتها دائما في اللحظات الاخيرة ، بافتراض صحة الروايات المتعددة التي يذكرها ؟

واذا كانت هناك عناصر تملك القوة الادبية ـ دون القوة المادية ـ استطاعت منذ عام ١٩٤٨ أن تفرضارادتها بنجاح ، ألا يكون معنى ذلك ان هذه العناصر تمثل حقيقة جماعية تاريخية هي الارادة العربية العامة ؟

وقد ناقشت رودنسون في موقف الرأي العام العربي من أية محاولة للاتفاق مع اسرائيل . ورغم انه في كتابه اعترف بقوة الرأي العام العربي في هذه النقطة بالذات ، فقد كان في حديثه أكثر صراحة ، فقال ببساطة :

● « أنا لا أعترف بأن الرأي العام العربي يرفض الصلح مع اسرائيل ! »

وقلت له اني قابلت بطريق المصادفة في باريس بعض الجزائريين الذين لم يزوروا الشرق الاوسط ولا يتكلمون العربية جيدا ، ومع ذلك فقدوا أعصابهم وثاروا ثورة عنيفة عندما حدثتهم عن احتمال الحل السياسي في اطار قرار هيئة الامم . فأجاب رودنسون ببساطة أيضا :

● « الجزائريون يتكلمون في هذا الموضوع كثيرا ولا يفعلون شيئا ! »

ومما يذكر انه يحاول في كتابه أن يبرر موقف الجزائر ضد اسرائيل بأنه مجرد تعبير عن مصالح البورجوازية الجزائرية المرتبطة برأس المال الفرنسي المعارض لاميركا !! (ص ١١٩ ـ ١٢٠) .

لكن السؤال يبقى رغم ذلك معلقا :

كيف استطاعت أقلية « متطرفة » أن تفرض ارادتها منذ احتلال فلسطين حتى اليوم ، وحتى بعد الهزيمة المروعة في العام الماضي ؟

ان رودنسون يضع على غلاف كتابه عنوانا اضافيا هو : « خمسة وسبعون عاما من التاريخ » ـ وبذلك يجعل

بداية اسرائيل سابقة على اعلان الدولة الاسرائيلية بخمسة وثلاثين عاما . فاذا أخذنا افتراضا بهذا التقدير التاريخي ، فان السؤال يزداد خطورة :

كيف فشل الاسرائيليون خلال خمسة وسبعين عاما من الانتصارات العسكرية في أن يفرضوا على العرب الاعتراف السياسي والادبي بوجودهم ؟

ألا تكفي هذه الحقيقة التاريخية للتعبير عن مستقبل اسرائيل في الوطن العربي ؟

ألم يفعل الصليبيون الشيء نفسه في الماضي ثم انتهوا الى لا شيء ؟

لكن مكسيم رودنسون يذكر كلمة عبد الناصر عن زوال المستعمرات الصليبية ليبرر بها عكس معناها . فهو يرى ان عبد الناصر يقصد بهذه الكلمة أن يتخلى العرب عن فكرة الصدام مع اسرائيل وأن ينتظروا قرنا آخر من الزمان (ص ١٥٧) .

ولننتقل الآن الى رأي المؤلف في مجموعة بن غوريون ..

توجد في اسرائيل — كما توجد في أية جماعة بشرية من أي نوع — اتجاهات مختلفة متعددة . فهناك مثلا شيوعيون صهاينة . ورأسماليون صهاينة . وحلقات دينية متزمتة تطالب بتطبيق الطقوس اليهودية حرفيا . وملاحدة صهاينة .. وهناك اتجاه يرى ان اسرائيل بعد أن فرضت وجودها عسكريا يجب أن تلجأ الى الوسائل السلمية لتفرض نفسها سياسيا ولتتمكن من الانتشار في بقية المنطقة اقتصاديا وفكريا . وهناك اتجاه آخر يرى ان العرب لن يقبلوا الوجود الاسرائيلي ، فيجب اذن أن تعمل اسرائيل باستمرار على توسيع رقعتها عسكريا بالاستيلاء على ما يمكن الاستيلاء عليه من أرض العرب . وكل هذه الاتجاهات والحلقات تتفق على نقطة أساسية ، هي أن فلسطين تمثل الوطن الاصلي لليهود وان دولة اسرائيل هي امتداد لهذا الاصل التاريخي .

أين يقف المؤلف من هذه الجماعات الصهيونية ؟

يقف المؤلف مع جماعة اشكول وابا ايبان ، ويرى انهم دعاة سلام وانهم يميلون الى التعاون مع المعسكر الاشتراكي (ص ١٠٦ و ١٧٣) ، وهو يذكر كلمة ابا ايبان عن السياسة الخارجية لانصار بن غوريون وكيف أطلق عليهم اسم « المغامرين » و « المقامرين » (ص ١٧٢) . ومع ذلك فان النقد الذي يوجهه رودنسون نفسه اليهم لا يصل حتى الى مستوى رأي ابا أيبان . فهو يكتفي بأن يطلق على جماعة بن غوريون اسما معتدلا هو « العناصر الضاغطة » Activistes . وهو لا يكتفي بأن ينكر ارتباط هذه العناصر بالاستعمار الاميركي ، بل يحاول أن يقدمهم للقارىء في صورة العناصر « الوطنية » المتمردة على السيطرة الاميركية ! (مثلا ص ١٠١ — ١٠٢) . وأكثر من ذلك انه يحاول كثيرا أن يبرر مواقفهم بالقاء اللوم على « الرفض العربي » واصرار العرب على عدم الاعتراف باسرائيل . يقول مثلا (ص ٢١٩) :

« ان الرفض معناه استمرار الحرب . وفي أي حرب فان أي طرف لا يتنازل عن قطعة صغيرة من المميزات التي يكسبها » .

ومرة أخرى يتحدث عن اسرائيل فيقول (ص ١٦٩) :

« القلعة المحاصرة التي يرقص حولها الاعداء رقصة الحرب » .

أما حرب يونيه ١٩٦٧ ، فهي في رأيه نتيجة لنفس السبب التاريخي : رفض العرب لاسرائيل . ومن هنا يشكك في جدية التهديد العسكري لسوريا في مايو ١٩٦٧ (ص ١٨١) . وحتى قيام اسرائيل بالضربة الاولى ، لم يكن الا استجابة لتقديرات العسكريين الذين أدركوا ان انتظار الضربة الاولى من العرب يعرض البلاد لاعظم المخاطر .

في هذا الاطار الصهيوني ، يتحرك رودنسون في دعواته المتكررة الى السلام .

ماذا يريد رودنسون ؟

والآن ماذا يريد رودنسون بعد هذه الجولة الطويلة من التبريرات والتفسيرات ؟

يريد أن يقول للعرب انه لا بد من الاعتراف باسرائيل والاتفاق معها . وحتى من أجل اقامة دولة يهودية عربية في فلسطين ، يجب أن يبدأ العرب أولا بالصلح مع اسرائيل والتفاهم معها وتبديد مخاوفها ، لكي تتطور بعد ذلك تدريجيا الى دولة يهودية عربية (أي بعبارة صريحة ، لكي يتطور الوطن العربي كله تدريجيا الى مجتمع صهيوني عربي !) — ص ٢٢٥ — ٢٢٦

ومن ناحية أخرى يريد أن يقول لمجموعة بن غوريون انه لا غنى عن التفاهم السلمي مع العرب ، وان عقد معاهدة صلح عن طريق المفاوضات خير وأبقى من معاهدة صلح عن طريق الاملاء العسكري بدون قيد ولا شرط . (ص ٢٢١) ... ويلاحظ ان المؤلف يحاول هنا أن يفاضل بين نوعين من الحلول لا وجود لهما الا في رأسه !

وهو في سبيل اقناع مجموعة بن غوريون بالتفاهم مع العرب ، يذكرهم بأنهم لم يحققوا بعد حلم الصهيونية الكبير . يقول (ص ٢١١) :

« لنلاحظ هنا ان الصهيونية لم تدرك بعد كل أغراضها ... فاليهود الباقون خارج اسرائيل هم أكثر عددا بكثير من اليهود الذين عادوا الى اسرائيل » .

ومن المفيد أن يتنبه القارىء الى كلمة « العودة » التي يستخدمها رودنسون كثيرا عند الحديث عن احتلال فلسطين . يقول في مكان آخر مثلا (ص ٢٠٥) :

« من المؤكد (؟!) ان اليهود الصهيونيين الذين عادوا الى فلسطين هم بدرجة معينة أقارب عرب فلسطين من وجهة نظر علم السلالات البشرية » .

ثم يختم الرجل كتابه بتحذير الى العرب من

المناضلين الفلسطينيين . ويصل هذا التحذير الى حد تخويف البلاد العربية صراحة باستخدام الغارات الجوية الاسرائيلية ضدها كما تستخدم أميركا الغارات الجوية ضد فيتنام الشمالية للرد على حرب العصابات في فيتنام الجنوبية (ص ٢٢٨) . لكنه ينسى ان حرب فيتنام تمثل هزيمة مخيفة للاستعمار الاميركي أكثر مما تمثل تخويفا لشعب فيتنام الشمالية .

وقد سألت الرجل في اخلاص :

ـ ما هو الحل المباشر في رأيك اذن ؟ وكيف يمكن تنفيذ قرار هيئة الامم بالانسحاب سلميا دون حرب ؟

فأجاب في صراحة جارحة :

● « اذا جربتم الحرب مرة أخرى ، سوف تهزمون هزيمة جديدة وربما نهائية ! »

وشعرت اذ ذاك انني لا أجلس أمام أستاذ له علاقة بالدراسات التاريخية . لان التاريخ لم يذكر أبدا ان هناك شعبا كتبت عليه الهزيمة الابدية . وانما تتحدد المعارك دائما وفقا لظروف الزمن وامكانيات المجتمع ومستوى التقدم ووسائل القدرة .

وعاد الرجل يقول :

● « ان مؤتمر الخرطوم قضى على أي أمل في حل المشكلة سلميا ، لانه قرر رفض الاعتراف باسرائيل ورفض التعاون معها » .

وسألته :

ـ ألا ترى اذن ان الحكومة الاسرائيلية يجب أن تقبل تنفيذ قرار هيئة الامم المتحدة ؟

أجاب :

● « يجب بالفعل أن تقبل ذلك ، اذا توفرت فرصة السلام » .

وسألت :

ـ أفهم من ذلك ان فرصة السلام هي الصلح مع اسرائيل ؟

أجاب :

● « المسألة ليست فقط مسألة صلح مع اسرائيل ، بل لا بد أن يقدم الحكام العرب برنامجا لحل المشكلة الفلسطينية كلها . وان خطبة عبد الناصر في ٢٣ يوليه عن حقوق شعب فلسطين معناها استمرار الحرب » .

وفكرت في أن أقول له ان أحدا من الحكام العرب قد يملك من الناحية الشكلية حق التنازل عن جزء من أرض بلده ، لكنه لا يملك الحق في التنازل عن جزء من أرض بلد عربي آخر ، لان أصغر طفل فلسطيني يستطيع في هذه الحالة أن يرفض أي قرار تتخذه أية حكومة عربية لتصفية القضية الفلسطينية .

ومع ذلك فاني أعترف بأنني استفدت كثيرا من قراءة كتاب رودنسون ومن تبادل الحديث معه . ان أطماع الصهيونية واحتقارها للشعوب العربية لا يقف عند حد ، مهما تنوعت وسائل التعبير عن ذلك . وان مفتاح الموقف كله ، هو مستوى القدرة العربية .

واذا كان العرب قد نجحوا في الاصرار على الرفض البطولي للغزو الصهيوني طوال خمسة وسبعين عاما ، عاشوا الجزء الاكبر منها تحت السيطرة الاستعمارية والاقطاعية ، فانهم لقادرون على استئناف موقف الرفض سنوات أخرى في ظل الاستقلال .

ان انتصار الصهيونية عام ١٩٤٨ أسقط الملكية في مصر . وعدوان ١٩٥٤ دفع مصر الى باندونغ والى صفقة الاسلحة ثم الى تأميم القناة . وعدوان ١٩٥٦ أسقط حلف بغداد . وانتصار ١٩٦٧ أطلق حركة التحرر الفلسطينية من أعماقها ، وهز أعماق المجتمعات العربية بمختلف أنواعها .

ان بقاء الشوكة الاسرائيلية في الجسم العربي يشبه الطريقة الصينية في العلاج بالابر لاطلاق الطاقات الكامنة . ومن المؤكد ان استمرار العدوان الاسرائيلي سوف يخلق الاجهزة العربية والنظم التقدمية القادرة على مواجهتها .

وسوف يذكر التاريخ دائما بالاعجاب والتقدير ، ثبات الرفض العربي الشامل رغم انتصارات اسرائيل . وسوف يذكر التاريخ بالاستنكار دعوات الاستسلام التي يطلقها الخاضعون للعنصرية اليهودية ، مهما كان لون الرايات التي يلوحون بها .

باريس — **اسماعيل المهدوي**

دار المصراتي

طرابلس الغرب ـ ليبيا

تقدم

١ ـ **لغز الحياة** قصة للدكتور مصطفى محمود
٢ ـ **الامس المشنوق** مجموعة قصص للاستاذ كامل حسن المقهور

يصدر قريبا :

١ ـ احاديث عن تاريخ ليبيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر للاستاذ احمد صدقي الدماني
٢ ـ غوما مسرحية للدكتور مصطفى محمود
٣ ـ معزوفة لدرويش متجول ديوان للشاعر محمد الفيتوري